زكارنة, فيصل، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 56-44، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/2834y480

العمل الأثري في فلسطين منذ القرن التاسع عشر
إشكاليات الدوافع والمعايير العلمية

فيصل زكارنة

الملخص

يهدف البحث إلى التركيز على تاريخ العمل الأثري في فلسطين منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن، ويرصد الخلفية الدينية والسياسية لبعثات التنقيب الأجنبية، وتحولها إلى دوافع استعمارية توسعية. وبالمقابل، يعرض لبعض بعثات التنقيب التي اعتمدت المعايير العلمية في عملها الأثري منذ الخمسينيات. استندت منهجية البحث إلى المنهج الوصفي التحليلي لتوثيق التنقيبات الأثرية ضمن مراحل زمنية، ودراسة دوافعها الحقيقية وآثارها، إضافة إلى استخدام المنهج التاريخي المقارن لقياس ملاءمة دوافع التنقيبات الأثرية في فلسطين مع المعايير العلمية للعمل الأثري بشكله الموضوعي المحايد. أظهرت النتائج بروز تيارات فكرية بعد احتلال عام ١٩٦٧ مناقضة لمنهج علم الآثار التوراتي، وتتبنى مناهج تستند إلى المعايير العلمية وأكثر موضوعية في العمل الأثري في فلسطين.

الكلمات المفتاحية: فلسطين، التنقيب الأثري، علم الآثار التوراتي، الحركة الصهيونية، الرواية التوراتية الذاتي.

Archaeological Work in Palestine since the Nineteenth century
Problems of Motives and Scientific Standards

Faisal Zakarneh

ABSTRACT

The research aims to focus on the history of archaeological work in Palestine since the nineteenth century to the present and monitors the religious and political background of foreign excavation missions, and their transformation into expansionist colonial motives. It also presents some excavation missions that adopted scientific standards in their archaeological work since the fifties. The research methodology is based on the descriptive and analytical approach to document archaeological excavations within time stages, and to study their real motives and effects. The research also used the comparative historical approach to measure the suitability of archaeological excavations in Palestine with the scientific standards of archaeological work in its objective and neutral form. The results showed the emergence of intellectual schools of thought after the1967 occupation contradicting the biblical archeological approach and adopting scientific and more objective-based approach in archaeological work in Palestine.

Keywords: Palestine, archaeological excavation, biblical archaeology, Zionist movement, biblical narrative.

الأستاذ فيصل زكارنة, باحث مستقل, للمراسلة: faisalz2012@yahoo.com.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس, (www.alquds.edu).

Mr. Faisal Zakarneh, Independent Researcher. For correspondence: faisalz2012@yahoo.com.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

المقدمة

بدأ الاهتمام بفلسطين كأرض مقدسة في فترة مبكرة نتيجة لدوافع دينية مرتبطة بعقائد أولئك المؤمنين بتلك الديانات السماوية، ولكن في منتصف القرن التاسع عشر، أخذ هذا الاهتمام طابعاً جديداً بدوافع سياسية واقتصادية من قبل القوى الغربية. شهدت فلسطين العديد من حملات التنقيب الأثري التي كانت غالبًا متأثرة بالتحيز الديني والسياسي، وكان الهدف منها إما إثبات صحة المرويات التوراتية، أو تعزيز المزاعم السياسية حول أحقية اليهود في الأرض. وخلال فترة الاحتلال والانتداب البريطاني على فلسطين (١٩١٧-١٩٤٨م)، نشأت ما تعرف بمدرسة علم الآثار التوراتي، والتي كثفت من أنشطة العمل الأثري الغربي في فلسطين، تحت إشراف ورعاية ودعم الإدارة البريطانية، حيث ساهمت الحركة الصهيونية في توجيه هذه البعثات لخدمة أهدافها السياسية، ما أدى إلى ربط الآثار الفلسطينية بالهوية اليهودية بشكل غير علمي. وفي هذا السياق، وُظف علم الآثار كأداة لدعم مشروع إقامة الدولة اليهودية، رغم مقاومة الفلسطينيين لهذه الأنشطة، فقد استمرت بعثات التنقيب، وظهر تأثيرها بشكل واضح في عام ١٩٤٨م وتأسيس دولة إسرائيل، وما تضمنه إعلان الاستقلال من تبريرات وسياقات تاريخية، عكستها نتائج التنقيبات الأثرية. وعلى إثر احتلال إسرائيل لباقي فلسطين الانتدابية عام ١٩٦٧، أطلقت سلطات الاحتلال الإسرائيلي حملة واسعة من المسوحات والتنقيبات الأثرية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بهدف إعادة تشكيل تاريخ الأرض بما يتماشى مع الرواية الصهيونية، وشمل ذلك سرقة الآثار وتدمير المواقع التاريخية، وتزوير التاريخ الحقيقي لتلك المواقع. بعد عام ١٩٩٤م أطلقت السلطة الفلسطينية برنامجاً طموحاً للعمل الأثري المنظم في فلسطين من قبل دائرة الآثار الفلسطينية، وقد نجحت إلى حد ما في تنفيذ أجزاء من ذلك البرنامج، إلا أن التحديات التي فرضها الاحتلال الإسرائيلي جعلت العمل الأثري الفلسطيني الرسمي يواجه صعوبات في تأهيل وحماية الإرث الثقافي.

لقد انطلق العمل الأثري في فلسطين بمختلف مراحله الزمنية من دوافع اصطدمت بإشكالية عدم الاستناد إلى معايير علمية واضحة. ولفهم تلك الإشكالية سيتم تناول مختلف مراحل العمل الأثري في فلسطين، ودوافعه، واستراتيجياته، ونتائجه من خلال خمسة محاور رئيسيّة:

أولاً: رحلات الحجّ والاستكشاف والتنقيبات الأولى في فلسطين

شكّلت فلسطين وجهة ومقصداً روحياً ملهماً للكثير من المؤمنين، خاصة أولئك المسيحيّين في أوروبا، والّذين طالما سمعوا وقرأوا وحلموا بالأرض المقدّسة موطأ السّيّد المسيح ومسرح سيرته ومعجزاته. سعى الكثير من مسيحيّي أوروبا للحجّ وزيارة الأرض المقدّسة، وكانت تلك الرّحلة تعتبر هدفاً سامياً ونهائيّاً يتمّم عقيدتهم وإيمانهم. ورغم البعد الجغرافي ومشقّة السّفر وتكاليفه، إلاّ أنّ رحلات الحجّ إلى فلسطين استمرّت عبر مختلف الفترات الزّمنيّة.

يوثّق الحاج بورشارد (Burckhardt)، في وقت مبكّر، رحلته وإقامته في الأرض المقدّسة في كتابه (وصف الأرض المقدّسة) والذي يعبّر فيه عن تلك القيم الرّوحيّة والأخلاقيّة الّتي مثلتها فلسطين في وجدانه. والحاج بورشارد هو مواطن ألماني من بلدة ماجديبورغ (Magdeburg)، وقد عاش في القرن الثالث عشر الميلادي وأصبح راهباً في جماعة الدّومنيكان، كما أنّه توجّه إلى الشّرق في سنة ١٢٣٢م، حيث زار عدّة بلدان ومن ضمنها فلسطين، ومكث في دير جبل صهيون في القدس عشر سنوات (الحاج بورشارد، ١٩٩٥، ص ص. ١٦-١٧). قدّم الحاج بورشارد في كتابه المذكور وصفاً كاملاً للأرض المقدّسة، أي فلسطين، والمهمّ في هذا الوصف هو انطلاقه من شعور داخلي تميّز به أغلب الحجّاج المسيحيّين، والّذين انطلقت مشاعرهم من تلك القيمة الوجدانيّة العالية التي مثلتها فلسطين لهم. فيقول الحاج بورشارد في مقدّمة كتابه:

> « .. ما العجب إذن، إذا طال شوق المسيحيّين لمشاهدة الأرض المقدّسة وزيارتها حيث توجد كل كنائس المسيح الّتي أخبرنا عنها؟ وقد وقّر الأتباع الكبار قدس الأقداس، لأنّ تابوت العهد، كان يوجد وكأنّه الملاك الجميل مع الغطاء الذّهبي، والمنّ (الذي أنزل على بني إسرائيل)، والعصا التي أزهرت، كل هذه كانت أنواع لأشياء موجودة..... يا إلهي فكما تخبرنا التّواريخ القديمة، فإنّني أرى إبراهيم (عليه السّلام) تاركاً بلدة عائلته، وبيت والده، وقادماً بسرعة لهذه الأرض، ينصب خيمته بين بيت إيل وعاي، ويقيم إقامة مؤقّته في جرار وبئر السّبع، وفي الخليل. إنّني أتصوّر حزقيال تاركاً مياه بابل، محمولاً من شعر رأسه بين السّماء والأرض، يشقّ طريقه باتّجاه بيت المقدس. ماذا سأقول (لمريم) العذراء المبجّلة، التي لم تقنع بسهول الجليل الجميلة الواسعة، وانطلقت مسرعة للصّعود إلى بلدة جبليّة من بلدان بيت المقدس، خاصّة بعد أن أبلغتها الملائكة ببشارة المسيح -عليه السّلام- والوعد الذي عرفت بمقتضاه أن رحمها خصّصت لتكون بيت الإله. ماذا يمكنني القول عن سيّدنا يعقوب، ويوسف وإخوته الذين لم يستطيعوا الاستقرار في تلك الأرض (فلسطين) خلال حياتهم، وبسبب ذلك اختاروا أن يدفنوا فيها بعد مماتهم ...» (الحاج بورشارد، ١٩٩٥، ص ص. ٢٦-٢٩).

يستنتج من حديث الحاج بورشارد مدى التّعلّق والشّغف بالأرض المقدّسة، ومن الواضح في حديثه إيمانه الشّديد بمرويّات العهد القديم من الكتاب المقدّس، وباعتبار أنّ فلسطين شكّلت المسرح الحقيقي لتلك المرويّات وما تبعها من مرويّات للعهد الجديد.
إنّ ذلك التّعلّق والشّغف حفّز الحاج بورشارد أن يسير في فلسطين طولاً وعرضاً مشياً على الأقدام، ليحدّد كلّ تلك المواقع المقدّسة، من دان في الشّمال وحتّى بئر السّبع في الجنوب، ومن البحر الميّت في الشّرق، إلى البحر المتوسّط في الغرب، وهي الحدود التّوراتيّة لأرض كنعان، حتى يرسم ويصف تلك الأرض المقدّسة ليسهّل على الحجيج الآخرين فهم كتابهم المقدّس ومرويّاته (الحاج بورشارد، ١٩٩٥، ص ص. ٣١-٣٢).
استمرّ الاهتمام بفلسطين من خلال رحلات الحجّ واكتشاف الأرض المقدّسة، وفي هذا السّياق، جاءت رحلة القسّ السويسري فيليكس شميدت .١٤٨٣-١٤٨٤م، وتابعت تلك الرّحلات مسارها إلى أن تطوّرت إلى رحلات وبعثات تنقيب أثري، وكان الدّافع لها خلفيّة دينيّة ترتبط بالكتاب المقدّس، وبأنّ فلسطين هي الأرض المقدّسة (أولبرايت، ١٩٧١، ص. ٢٧).
جاءت حملة نابليون بونابرت على فلسطين عام ١٧٩٩م والتي أعقبت حملته على مصر ١٧٩٨م، لتؤكّد أنّ الدّوافع الدّينيّة والاستعمارية الأوروبيّة كانت هي الغالبة في المسح والاكتشاف والتعرّف على فلسطين، حيث وجّهت حملة بونابرت نحو استنهاض الاهتمام الأثري في فلسطين، بهدف إعادة بناء مكانة التّوراة ضمن تاريخ فلسطين والشّرق الأدنى القديم، وبذلك فقد تحوّل الاهتمام الأوروبي من إطار رحلات الحجّ واكتشاف الأرض

المقدّسة، والذي زاد بشكل كبير منذ القرون الوسطى، باتّجاه مرحلة العمل الأثري والحفر تحت الأرض، والذي جاء في وقت لاحق مع منتصف القرن التّاسع عشر ميلادي، تحقيقاً للأهداف الدّينيّة والاستعمارية المذكورة سابقاً (الشلبي والعدوان، ٢٠١١، ص. ٢٠).

شهد القرن التّاسع عشر تطوّراً نوعيّاً في أعمال المسوحات والتّنقيبات الأثرية الأولى في فلسطين، وانطلق هذا التّطوّر من حدث رئيسي تمثل في رحلة عالم اللّاهوت إدوارد روبنسون (Edward Robinson) وصديقه إيلي سميث (Eli Smith)، 1838م، حيث توصف هذه الرّحلة بأنّها مهّدت الطّريق لبعثات التّنقيب الأولى في فلسطين. واستمرّت تلك الرحلة ثلاثة أشهر، حيث قام كل من روبنسون وسميث بتوثيق كافّة المواقع والأسماء الفلسطينيّة ومطابقتها مع ما ورد في الكتاب المقدّس. وتبع ذلك تطوّر آخر وهو قيام بريطانيا بإنشاء صندوق اكتشاف فلسطين عام ١٨٦٥م، حيث بدأ هذا الصّندوق بالحفر والتّنقيب في فلسطين ابتداءً من عام ١٨٦٧م مع بعثة ضابط المدفعيّة تشارلز وارن (Charles Warren)، والتي عملت في القدس (أولبرايت، ١٩٧١، ص ص. ٢٩-٣١). وتوالت بعثات المسح والتّنقيب الأثري الغربيّة في فلسطين، حتّى بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م.

ويمكن إجمال وتلخيص بعض النماذج من أهمّ تلك البعثات ونتائجها، حسب الترتيب الزمني الكرونولوجي، على النّحو التّالي (نجم، ٢٠٠٩، ص. ٥٠، ص ص. ٨٤-٨٥؛ الشلبي والعدوان، ٢٠١١، ص ص. ٥٣-٥٤؛ الأشهب، ٢٠٠٢، ص. ٣٤، ص ص. ٩٨-٩٩؛ أولبرايت، ١٩٧١، ص ص. ٢٧-٥١؛ طه وكوي، ٢٠١٤، ص ص. ٩-١٤):

الرقم	الموقع	البعثة	التاريخ	النتائج
1	غزة (تل العجول)	بعثة المدرسة البريطانية بإشراف فلندرز بتري (Flinders Petrie)	1878م	مسح ودراسة الموقع فوق السطح
2	القدس	بعثة فريدريك جونز بليس (Frederick Jones Bliss)، وآرشيبالد كامبل ديكي (Archibald Campbell Dickie)	1894م-189م	دراسة طبقات الأرض، في جنوبي سور القدس، وخرجا بعد ذلك بنظريات خاطئة في عدم تحديد الطبقات للفخاريات وتاريخ صناعتها
3	مجدو (تل المتسلم)	بعثة ارنست سللين (Ernest Sellin)	1901م	اكتشاف ألواح ورقم طينية مسمارية ومخلفات عمرانية تعود لمختلف العصور
4	قرية أبو شوشة (تل جازر)	بعثة ستيوارت ماكاليستر (Stewart Macalister)	1902 -1909م	توثيق وتأريخ المخلفات الأثرية خاصة فيما يتعلق بمملكة يهودا في العصر الحديدي وغيره من العصور، وظهور جدل حول صحة ذلك التأريخ
5	أريحا (موقع تل السلطان الأثري)	بعثة نمساويّة ألمانيّة بإشراف عالم الدّراسات التّوراتيّة ارنست سللين (Ernest Sellin)، وكارل فانزنغر (Carl Watainger)	1907م	توثيق المكتشفات الأثرية من موقع تل السلطان، ووضع مخططات هندسية للمكتشفات والموقع
6	سبسطية (موقع السامرة الأثري)	بعثة جامعة هارفرد بإشراف جورج رايزنر أندرو (George Reisner Andrew)	1908م–191م	اكتشاف 70 كسرة فخارية تعود للقرن الثامن قبل الميلاد، ومخلفات عمرانية، وظهور جدل حول تأريخ وتوثيق تلك المكتشفات
7	القدس	بعثة مونتاغو براونسلو باركر (Montagu Brownslow Parker)	1913م	لا توجد نتائج عملية بعد التوقف عن الحفر في الحرم الشريف، خاصة جنوب شرق قبّة الصّخرة، بسبب معارضة الأهالي وإثارة الرأي العام الفلسطيني ضدّ الحفريّات الأوروبية في الأماكن المقدّسة، والاعتراض على فساد الإدارة العثمانية لدى السلطان العثماني في الآستانة (اسطنبول)
8	تل بلاطة	بعثة الجمعية الألمانية للبحث العلمي بإشراف ارنست سللين (Ernest Sellin)، وكارل فانزنغر (Carl Watainger)	1913– 1914م	اكتشاف مقاطع من سور المدينة التاريخية والذي يصل ارتفاع بعض جهاته إلى 10 أمتار، ويعود للقرن الثامن عشر قبل الميلاد، ومخلفات عمرانية أخرى

جدول ١: نماذج من بعثات المسح والتّنقيب في فلسطين حتّى الحرب العالميّة الأولى ١٩١٤م

يتضح جلياً مما سبق ذكره سيطرة المعتقدات الدّينيّة على مختلف بعثات الاكتشاف والتّنقيب الأولى في فلسطين، حيث ساد في الغرب، وخاصّة في القرن التّاسع عشر، قناعة راسخة دينيّة بأنّ الدّيانة اليهوديّة هي منبع الحضارة الغربيّة، ومن هنا نشأت فكرة البحث عن إسرائيل القديمة في فلسطين، وهذه الفكرة ترسّخت بشكل جذري في الوعي الجمعي الأوروبي وعلى مختلف المستويات. وهذا انعكس في حياة العائلة الأوروبية البسيطة من الطفل وحتّى الشّيخ، فالكلّ يغنّي ويرتّل للأرض المقدّسة وتاريخها المجيد، ابتداءً بإسرائيل القديمة، ووصولاً إلى يسوع المخلّص، وبالتّالي، فإنّ ذلك الفكر المتجذّر في الوعي الأوروبي يصعب تغييره أو تبديله. وفي هذا السياق، فقد وضح المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند في كتابه (اختراع أرض إسرائيل) أن هذا الفكر الديني الأوروبي بدأ بالتشكل مع القرن السادس عشر ميلادي، وانطلاق الحركة الإصلاحية البروتستانتية، وما رافقها من إجراءات دينية أهمها ترجمة العهد القديم من اللاتينية المعقدة، والتي يجهلها أغلب الأوروبيين، إلى اللغات الأوروبية المحلية كالإنجليزية والألمانية، وأصبحت بذلك أسفار العهد القديم متاحة أمام المتخصص والقارئ العادي، وهذه العملية أدت بالنهاية إلى تشكل ذلك الوعي الجمعي المشار إليه والمتعلق بإسرائيل القديمة والأرض المقدسة، وخاصة في بريطانيا (ساند، ٢٠١٣، ص. ١٦١).

حرّكت عواطف المنقّبين الأوائل في فلسطين اهتمامهم بالمواقع الأثرية الفلسطينية، وليست أهميّة الموقع أو تاريخه الحضاري، ومن هذا المنطلق فإنّ إرث ومرويّات العهد القديم كانت موضع اهتمامهم الرّئيسي في القرن التّاسع عشر وما تلاه، وكان هدف أولئك المنقّبين

إثبات صحة المرويّات التّوراتيّة فقط، من حيث الأحداث التّاريخيّة والعادات وأسماء الأماكن. وفي هذا الإطار، يتضح من خلال تاريخ بعثات الاكتشاف والتنقيب المدرجة في الجدول (١)، أن خلفية العاملين في التّنقيب تعود لمؤسّسات دينية غربية، ولم يكونوا مختصين بالعمل الأثري بالأساس، ويستشفّ من استعراض خلفيّة أولئك المنقّبين الأوائل أنّ أغلبهم كانوا بالأساس علماء لاهوت ودراسات توراتية، ويتْبعون لمؤسسات دينية وكنائس تبشيرية غربية، عملت ضمن معتقداتها الدينية الأسطورية، وليس على أساس المناهج المتعارف عليها في علم التاريخ والآثار (الشلبي والعدوان، ٢٠١١، ص ص. ٢٠-٢٢). وبالتالي، فإن كل ما سبق قد انعكس على عدم دقة نتائج تلك البعثات وموضوعيتها، وتناقضها، استناداً إلى عدم اعتمادها أصلاً على معايير علمية واضحة في الحفر والتنقيب الأثري. ويضاف إلى ما سبق، أن الدوافع الدينية لم تكن هي المحرك الأساسي الوحيد لأعمال التنقيب الأولى في فلسطين في القرن التاسع عشر وما تلاه، بل تبعتها دوافع سياسية واقتصادية كانت متمّمة للدوافع الدينية، حيث سعت القوى الغربية إلى استغلال وتوظيف البعثات الأولى في خلق موقع قدم لها لحماية مصالحها، خاصة التجارية منها وتطويرها، في ظل ضعف الدولة العثمانية المتهالكة، الذي كان له أثر كبير وأساسي في استباحة فلسطين والأراضي الأخرى التابعة للسلطنة، فضُعف الإدارة العثمانية وفسادها مكّن القوى الغربية وبعثاتها الأثرية من السيطرة على العديد من اللقى والمخلفات الأثرية وسلبها، ونشر تفسيرات تلك البعثات كنتائج نهائية مسلم بها، تعبّر عن أهواء ومقاصد مرسلي تلك البعثات، دون حسيب أو رقيب، وفي ظل غياب الوعي والجهل والطمع في بعض الأحيان لدى بعض الفئات في المجتمع الفلسطيني وغيرها من البلاد المستهدفة. حيث أن المشاركة الشعبية في رفض تلك التنقيبات والحفريات كانت ضعيفة، إلا من بعض الأحداث الاستثنائية كمواجهة حملة بعثة مونتاغو براونسلو باركر (Montagu Brownslow Parker) والموضحة في الجدول (١). إن ضعف الوعي لدى عامة الفلسطينيين كان من العوامل الرئيسية المسببة لذلك الضعف في مواجهة التنقيبات الأثرية الغربية الاستعمارية. إلا أن سوء الأحوال الاقتصادية والفقر وأولوية الناس قد تركزت على توفير لقمة العيش قبل البحث في أي شيء آخر، كان العامل الأبرز في عدم مواجهة تلك التنقيبات شعبياً (الشلبي والعدوان، ٢٠١١، ص. ٦٠).

ثانياً: التنقيبات الأثرية في عهد الانتداب البريطاني

خلال الحرب العالمية الأولى، وفي العام ١٩١٧م، منحت بريطانيا وعدها الشهير والمسمى وعد بلفور، لزعماء الحركة الصهيونية، والقاضي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ومن هنا باشرت الحركة الصهيونية العمل في كافة الميادين لتعزيز وجودها على الأرض في فلسطين، ومن تلك الميادين التي ركزت عليها علوم التاريخ والآثار. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م، وهزيمة الدولة العثمانية، وقعت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني ومن ثم الانتداب البريطاني، وأصبحت بريطانيا المسؤولة عن إدارة شؤون فلسطين في كافة مجالاتها، بما في ذلك الجوانب الأثرية، حيث أسس المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل (Herbert Samuel) دائرة الآثار الفلسطينية عام ١٩٢٠م، بإدارة جون غارستانغ (John Garstang) من جامعة ليفربول، والذي كان له خبرة في التنقيب الأثري في مصر. عملت الحركة الصهيونية منذ بداية الانتداب البريطاني على إيفاد العديد من الباحثين الصهاينة للعمل ضمن الفرق العلمية المتخصصة بالدّراسات والتاريخ التّوراتي، ومن أشهر من استقبل أولئك الموفدين واحتضنهم، وليم اولبرات (William Albright)، والذي كان يعمل رئيساً للمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس من ١٩١٩م وحتى ١٩٣٥م.

انسجمت الأهداف الصهيونية مع البحث التاريخي التوراتي ممّا أدّى إلى تشكيل منظومة عمل متكاملة في فلسطين، وتحت رعاية الإدارة البريطانية فيها، بهدف العمل على تحقيق وعد بلفور على أرض الواقع. ومن أبرز الموفدين الصهاينة الأوائل إلى فلسطين جوزيف كلاوزنر (Joseph Kaluzner) واليعازر بن يهود (Eliezer Ben Yahudal)، وكان أول عمل تباشره تلك المنظومة الجديدة هو تنقيبات في منطقة جنوب بحيرة طبريا والتي أجراها ناحوم سلوش (Nahum Slauch). لم يكن الموفدون الصهاينة الأوائل مختصين بالعمل الأثري، وإنما اقتصرت مهامهم في البداية على جمع المعلومات وتحديد مواقع الآثار اليهودية. وفي العام ١٩٢٢م أوفدت الحركة الصهيونية اليعازر ليبا سوكنيك (Eliezer Lipa Sukenik) بعد أن التحق بعدة دورات تدريبية أثرية في برلين، ولاحقاً في المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس، وبدأ في العمل الميداني بعد ذلك بحفر عدة خنادق في القدس، وتتالت أعمال الحفر والتنقيب لتلك المنظومة من خلال العديد من البعثات، وعلى قاعدة دمج الأهداف الصهيونية مع التنقيبات والأبحاث الأثرية التوراتية، وفي مختلف المواقع الفلسطينية (إبراهيم، د. ت، ص ص. ٩-١٠).

لقد سعى رواد الحركة الصهيونية منذ تأسيسها مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي إلى تعزيز فكرة الدولة اليهودية على قاعدة دينية خالصة مستوحاة من مرويات العهد القديم، لتشكّل عنصراً جاذباً ومقنعاً ليهود العالم، حتى يتبنّوا تلك الفكرة ويدعموها، وذلك من خلال إقامة إسرائيل الجديدة على أرض الميعاد (فلسطين)، وعاصمتها «أورشليم» وهي القدس، وإقامة الهيكل الثالث، وإحياء تراث الإسرائيليين الأوائل من جديد، تحت راية أحفادهم اليهود المعاصرين، خاصة في أوروبا. وضع أولئك الرواد خططاً وبرامج عمل لتحقيق أهدافهم من خلال اعتماد أساليب جديدة تدعم الدوافع الدينية وتعزّزها، وكان أبرز تلك الأساليب والأدوات هو علم الآثار، حيث سعوا جاهدين لربط ذلك العلم بأدبياتهم ومعتقداتهم الفكرية الدينية، ولتحقيق ذلك، عملوا بجد لدعم المشاركة في مختلف البعثات الأثرية الغربية، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وخلال فترة الانتداب البريطاني، حتى قيام دولتهم عام ١٩٤٨م (نجم، ٢٠٠٩، ص. ٧٥).

انطلق العمل الأثري الغربي، ومن ضمنه الصهيوني، على أوسع نطاقه في فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني، ويمكن تلخيص بعض النماذج لأهم بعثات التنقيب والعمل الأثري في تلك الفترة على النحو التالي (نجم، ٢٠٠٩، ص ص. ١٠٤-١٠٦؛ الأشهب، ٢٠٠٢، ص. ٣٤، ص. ٨٠، ص ص. ١١٣-١١٧، ص ص. ٩٩-١٠٠، ص ص. ١٢٦-١٢٨؛ إبراهيم، ٢٠١٠، ص. ١٤٤؛ أولبرايت، ١٩٧١، ص. ٤٠):

الرقم	الموقع	البعثة	التاريخ	النتائج
1	القدس	بعثة ستيوارت ماكلستير (Stewart Macalister) ودانكن (J. G. Duncan)	1925-1923	اكتشاف قطع حجرية من السور الشمالي للمدينة تعود للعصر البرونزي المتأخر
2	تل بيت مرسيم (الخليل)	بعثة المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية بإشراف وليم أولبرايت (William Albright)	1932-1926م	اكتشاف مخلفات أثرية وعمرانية لمدينة كنعانية نموذجية تعود للعصر البرونزي المبكر، ولمختلف الفترات الزمنية وصولاً إلى العصر الحديدي
3	أريحا	بعثة جون غارستانج John (Garstang)	1939-1929م	اكتشاف مخلفات أثرية للمستوطنة النطوفية الأولى للعصر الحجري الحديث، مرحلة ما قبل الفخار
4	غزة (تل العجول)	بعثة المدرسة البريطانية للآثار بإشراف جيمس ليسلي ستاركي (James Leslie Starkey)، اولغا توفنيل (Olga Tufnell)	1938-1932م	اكتشاف كهوف منحوتة في الصخر للسكن تعود للعصر الحجري النحاسي في الألف الرابعة قبل الميلاد، ومخلفات أثرية وعمرانية كبيرة لمدينة كنعانية مسورة من مختلف العصور البرونزية، ومدينة نموذجية مسورة من العصر الحديدي، وتشمل قصراً ومساكن ومدافن وأدوات وأواني فخارية ذات ملامح مصرية
5	تل عي (البيرة)	بعثة ماركويت كروز (Marquet Krause)	1935-1933م	اكتشاف مخلفات أثرية لمدينة كنعانية تعود للعصر البرونزي القديم، وتشمل قبورا ومساكن ومعبد، واكتشاف مساكن تعود للعصر الحديدي الأول قامت على مخلفات مساكن من العصر البرونزي المتأخر
6	خربة الكرك (طبريا)	بعثة الجمعية اليهودية لاكتشاف فلسطين بإشراف بنجامين مازار (Benjamin Mazar)، وآخرون	1945-1944م	اكتشاف تحصينات دفاعية لمدينة تعود للعصر البرونزي المبكر، وتقع هذه التحصينات في جنوب وغرب الموقع، في حين أنّ شمال وشرق الموقع محاط ببحيرة طبريا. ومخلفات أثرية وعمرانية من مختلف العصور
7	القدس	بعثة نحمان افيجاد (N. Avigad)	1947-1945م	اكتشاف قبور في وادي قدرون اصطلح على تسميتها بقبور ابنة فرعون ابشالوم (Absalom) وبن هيزر وزكريا وتعود للفترة الهيرودية، بالإضافة إلى اكتشاف آبار وقنوات وحمامات في البلدة القديمة وتعود أيضاً للفترة الهيرودية
8	تل الفارعة الشمالي (نابلس)	بعثة مدرسة الآثار الفرنسية بإشراف بيير ديغو (Pierre Diégo)	1946م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية تعود للمستوطنة الأولى من العصر الحجري النحاسي في الألف الرابعة قبل الميلاد، والمدينة الكنعانية المسورة من العصر البرونزي المبكر وما يليه

جدول ٢: نماذج من بعثات المسح والتنقيب خلال فترة الانتداب البريطاني

تُعتبر فترة الانتداب البريطاني في فلسطين المرحلة الأساسية التي انطلق فيها علم الآثار التوراتي، على يد وليم أولبرايت (William Albright) والذي يتغنى بأنّه كان له شرف العمل والدراسة في تلك الفترة الهامة، خاصة خلال ترأسه للمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس. ويؤكد أولبرايت على أن مشروعات العمل الأثري اتخذت منحى ثورياً ابتداء من عام ١٩٢١م، وبدأت بتحقيق نتائج ملموسة مع بداية وأواسط الثلاثينيات، حسب وجهة نظره، وأن التقدم في الأساليب والنتائج كان في تطور مستمر وبهدف كتابة تاريخ متكامل لفلسطين كما ترويه آثارها (أولبرايت، ١٩٧١، ص ص. ٢٩-٣١). لقد أسّس أولبرايت منهجه في العمل الأثري على دوافع دينية خالصة، يعبر عنها بكل وضوح وقوة بتأكيده أن كل العهد القديم هو نتاج الأرض الفلسطينية والكتاب الإسرائيليين الأوائل، وأن العهد الجديد، والمكتوب بالإغريقية، هو نتاج نفس الأرض. إن العهد القديم وبفضل الشريعة الموسوية تحول إلى عقيدة دينية تسمو سمواً عظيماً عن كل نظرائها في مصر وبلاد الرافدين، وذلك الحال ينطبق على العهد الجديد، حيث أن محتوياته تتضمن خلاصة العقيدة والفكر اليهودي الممزوجين بالمنطق والجمال الإغريقي، وتتمحور بالأساس حول وقائع وأحداث دارت في فلسطين (أولبرايت، ١٩٧١، ص. ٢١١).

لقد كان لإدارة الانتداب البريطاني الدور والأثر الكبيران في رعاية ودعم مدرسة علم الآثار التوراتية الأولبرايتية، والتي عملت على تحقيق أهداف المشروع الصهيوني في إقامة إسرائيل الجديدة، وكانت تلك الإدارة هي الراعية والمحتضنة لجيل كامل من الآثاريين الصهاينة، والذين تولوا العمل الأثري مباشرة بعد نكبة فلسطين وقيام إسرائيل عام ١٩٤٨م (كفافي، ٢٠١٩، ص. ٤١). من المهم الإشارة إلى ردود الفعل الفلسطينية على العمل الأثري الغربي وعلى المشروع الصهيوني برمته في ظل الانتداب البريطاني والذي اعتبره الفلسطينيون احتلالاً. لقد تميز الوعي الفلسطيني في تلك الفترة الحساسة بأنه أكثر تطوراً وإدراكاً لمجريات الأمور على الأرض، وقاوم الفلسطينيون المشروع الصهيوني وإجراءات الاحتلال البريطاني، بما فيها أعمال التنقيب والحفر، بكل قوة، ولعل أبرز الحركات الفلسطينية في هذا السياق هو اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦م-١٩٣٩م (شوفاني، ١٩٩٦، ص. ٤٤٧)، حيث حدّثت تلك الثورة من أعمال التنقيب والحفر إلى حدودها الدنيا، وهذا ما أشار إليه سابقاً أولبرايت من أن العمل الأثري استمر بتطور كبير حتى منتصف الثلاثينيات. ورغم تطور وعي الفلسطينيين واحتجاجاتهم وثوراتهم، إلا أن ذلك لم يحل دون تنفيذ المشروع الصهيوني وإقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، وسلب الفلسطينيين أرضهم، وتشريد جزء كبير منهم.

ثالثا: التنقيبات الأثرية بعد نكبة فلسطين ١٩٤٨م

أعلن عن قيام إسرائيل في ١٤ أيار ١٩٤٨م وذلك بعد انسحاب قوات الاحتلال البريطاني من كامل فلسطين الانتدابية، حيث قامت إسرائيل على ما اصطُلح بتسميته بأراضي عام ٤٨، وهي فلسطين بحدودها الانتدابية، مستثنى منها كل من الضفة الغربية والتي ضمت للأردن، وقطاع غزة الذي خضع للإدارة المصرية. تمثلت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م بعدة أوجه كارثية، وتعد الإبادة الثقافية من أبرز تلك الأوجه، حيث أن تدمير نحو ٦٠٠ مدينة وبلدة وقرية فلسطينية وما تحمله من تراث ثقافي وإرث حضاري طويل شكل ما يعرف بمصطلح الإبادة الثقافية. ومن المهم الإشارة إلى أن حملة تدمير التراث الثقافي الفلسطينية تلك جاءت بعيد توقف الأعمال الحربية، بحيث نفذت بشكل ممنهج بكل ما يرتبط بتراث الإنسان الفلسطيني على أرضه. وفي هذا السياق، فإن الكثير من المدن والقرى والبلدات والمواقع التاريخية وغيرها جرى مسحها عن الأرض من قبل سلطات الدولة الجديدة الناشئة، ولم تتم إثارة هذه القضية على أي مستوى، وبقيت هذه المجزرة الثقافية دون اتخاذ أية إجراءات لمحاسبة مرتكبيها (طه، ٢٠٢٥، ص٦٧). باشرت الدولة الجديدة أعمالها الحكومية بتأسيس دائرة الآثار الإسرائيلية، بالإضافة إلى إنشاء المعاهد والجمعيات والمؤسسات ذات الاختصاص بعلوم التاريخ والآثار. وكانت مهمة تلك المرجعيات الحكومية وغير الحكومية القيام بالنشاط الأثري والتاريخي ضمن النظام الثقافي الصهيوني الجديد. بالإضافة إلى وضع نظام لعمل البعثات الأجنبية لينسجم مع نظام الثقافة الصهيونية المعتمد، وأخذت تفرض على البعثات الأثرية أسلوب التنقيب الجديد والنتائج المترتبة عليه. وباشرت الدولة الجديدة بعبرنة أسماء المواقع الأثرية الفلسطينية لربطها بالتاريخ الإسرائيلي القديم. أما في الضفة الغربية والتي خضعت للأردن، فاستمر التأثير الإنجليزي فيها ضمن الإدارات الحكومية الأردنية، ومع غياب الكوادر الفلسطينية والأردنية المختصة في العمل الأثري في تلك الفترة (إبراهيم، د.ت، ص. ١٤). شهدت فلسطين الانتدابية بمختلف تقسيماتها الجديدة بعد النكبة عام ١٩٤٨م وحتى عام ١٩٦٧م، نشاطاً أثرياً واسعاً، خاصة في أراضي ٤٨، حيث كان العمل الأثري برعاية إسرائيلية حكومية، ويمكن تلخيص بعض النماذج لأبرز بعثات التنقيب وأهمها في تلك الفترة كما يلي (نجم، ٢٠٠٩، ص ص. ١٠٦-١١١؛ الأشهب، ٢٠١١، ص. ٣٤، ص. ٥٠، ص. ٨١، ص ص. ٩٨-٩٩؛ إبراهيم، ٢٠١٠، ص. ١٤٤، ص. ١٤٩، ص ص. ١٥٤-١٦٥؛ أولبرايت، ١٩٧١، ص. ٤٣):

الرقم	الموقع	البعثة	التاريخ	النتائج	ملاحظات
1	القدس	بعثة ميخائيل آسفي يونا (M. Avi Yonah)	1947-1968م	اكتشاف مخلفات أثرية وعمرانية لمعسكر الفرقة العاشرة الرومانية، وآثار كنيسة بيزنطية	جرى الحفر والتنقيب في عدة مواسم متباعدة، في القسم الغربي لمدينة القدس، والواقع تحت السيطرة الإسرائيلية بعد 1948م
2	خربة الكرك	بعثة دائرة الآثار الإسرائيلية	1949-1955م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية للمدينة الكنعانية من العصور البرونزية، وتشمل مساكن وجدران	الموقع يقع في أراضي 48 وخاضع للسيطرة الإسرائيلية
3	أريحا	بعثة كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon)	1952-1958م	اكتشاف المخلفات الأثرية والمعمارية للمستوطنة النطوفية الأولى، والتي تعود للعصر الحجري الحديث في الألف التاسعة قبل الميلاد، وشملت أجزاء من سور المدينة، وخندق منحوت في الصخور يحيط بالسور، ومخلفات بيوت سكنية، بالإضافة إلى برج يحتوي على 24 درجة تؤدي إلى منصة. بالإضافة إلى اكتشاف 18 طبقة أثرية تمثل مراحل زمنية من العصر الحجري الحديث وحتى العصور الحالية، وكهوف ومدافن وقبور وهياكل عظمية بشرية تعود لمختلف العصور	خضعت أريحا للسيطرة الأردنية كونها في مناطق الضفة الغربية، وعمل ضمن البعثة عوني الدجاني من الكوادر المحلية
4	تل الشيخ العريني	بعثة دائرة الآثار الإسرائيلية	1956-1965م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية تعود للعصر الحجري النحاسي والعصور البرونزية حتى الحديدي. وتشمل المخلفات بقايا جدران من اللبن الطيني كأجزاء من مساكن وفخار يعود للبرونزي القديم، بالإضافة إلى ساحات حفر وتخزين وكلاهما مرصوفة بالحصى، مع اكتشاف 5 طبقات أثرية سكنية في الموقع	الموقع يقع في أراضي 48 (إسرائيل) وخاضع للسيطرة الإسرائيلية. البعثة بدأت بالمسح الأثري ابتداء من 1956م، والحفر والتنقيب ابتداء من موسم 1961م
5	القدس	بعثة كاثلين كينيون (Kathleen Kenyon)	1961- 1967م	تم اكتشاف العديد من المخلفات الأثرية والعمرانية والتي يمكن تلخيصها بأوان ومواد وأدوات فخارية، ومصاطب حجرية وجدران وأعمدة وقنوات وآبار وكهوف وقبور، وكلها تعود لمختلف العصور، من العصر البرونزي المبكر وحتى العصر الحديدي	تم الحفر والتنقيب في القسم الشرقي للقدس والخاضع للسيطرة الأردنية، وشملت مواقع السفوح الغربية لجبل الزيتون، البلدة القديمة، ومنطقة تل الضهور جنوب المسجد الأقصى بالقرب من سلوان (هضبة اوفل)، وتعتبر هذه البعثة من أهم البعثات التي جرت في القدس
6	تل تعنك	بعثة الكلية الأمريكية للأبحاث الشرقية بإشراف بول وليم لاب (Paul W. Lapp)	1963-1966م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية تعود للمدينة الكنعانية من العصور البرونزية، وتشمل تحصينات دفاعية حجرية وبرج، وأدوات وأواني فخارية، بالإضافة إلى مخلفات مساكن وقصر وقبور تحتوي على هياكل عظمية لأطفال، والعثور على جرة فخارية بداخلها هيكل عظمي لطفل	الموقع يخضع للسيطرة الأردنية كونه يقع في مناطق الضفة الغربية خلال تلك الفترة

جدول ٣: نماذج من بعثات المسح والتنقيب في فلسطين بعد النكبة ١٩٤٨م

رغم نكبة فلسطين وقيام إسرائيل عام ١٩٤٨م، وما رافقها من إجراءات ساهمت في نشر مفاهيم وأدبيات ومناهج علم الآثار التوراتي، في ظل نظام الثقافة الصهيوني الذي تبنته الدولة الناشئة حديثاً، إلا أن خمسينيات القرن الماضي شهدت تطوراً في المناهج والأساليب العلمية لعلم الآثار لبعض المدارس الفكرية الأوروبية في هذا المجال، حيث تبنت مناهج التنقيبات المأخوذة من علم الآثار الأوروبي لما قبل التاريخ، دون الاعتماد على أية مصادر مكتوبة. مثل هذا التطور النوعي في الاعتماد على دراسة الطبقات الأثرية من خلال علوم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، ومكّن ذلك المنهج الجديد علماء الآثار من تحديد تسلسل زمني تراتبي وتراكمي أكثر دقة. وفي هذا الإطار، تم استخدام تقنيات جديدة اعتمدت على الكربون ١٤ المشع في تحديد تاريخ المواد الأثرية والآثار القديمة، والتي شملت كافة المخلفات الأثرية، سواء كانت بشرية أو نباتية أو حيوانية. وتعتبر عالمة الآثار الانجليزية كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon) من أوائل من استخدم هذا المنهج ضمن بعثة التنقيب في أريحا ١٩٥٢-١٩٥٨م (طه وكوي، ٢٠١٤، ص. ١٣).

لقد استلهمت كنيون ذلك المنهج من أستاذها غوردون تشايلد (Gordon Childe) رئيس معهد الآثار في جامعة لندن، الذي رفض الأساليب والمناهج التقليدية في التنقيب الأثري، وأكد على ضرورة الاعتماد على المادية التاريخية للتطور الحضاري كأساس للتنقيب الأثري، وتكريس استخدام الأدوات العلمية المثبتة دون غيرها للكشف عن الآثار وتفسير مدلولاتها بناء على وظيفتها وطبيعة المجتمع الذي وجدت فيه. واعتبرت هذه الأفكار في حينها ظاهرة استثنائية برزت في ظل انتشار وسيطرة مناهج وأدوات علم الآثار التوراتي (إبراهيم، د.ت، ص. ١٣).

تعتبر حفريات عالمة الآثار الإنجليزية كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon) من أشهر أعمال التنقيب في فلسطين، حيث نقبت في أريحا، خلال المواسم ١٩٥٢-١٩٥٨م، والقدس لمواسم ١٩٦١-١٩٦٧م، (كما هو موضح في الجدول (٣) السابق)، واتسمت نتائج تلك التنقيبات بقدر عال من الموضوعية، والتي جاءت في سياق استخدامها للمنهج العلمي المحايد والمذكور سابقاً، حيث خالفت تلك النتائج ما تطرحه مدرسة علم الآثار التوراتي، وعلى رأسها وليم أولبرايت (William Albright). وفي كتابها «الحفر في أريحا» (Digging up Jericho) والصادر عام ١٩٥٧م، أوضحت كنيون بان الكتاب المقدس العبري يحتوي على العديد من التناقضات في البيانات التاريخية التي يطرحها، فلا يمكن التوفيق بين تلك البيانات والتسلسل الزمني المعتمد في فترات العصور القديمة. وفي هذا الإطار، تؤكد كنيون أن العديد من الأحداث التاريخية التوراتية لا توفر أية أدلة أثرية تدعمها، ومثال ذلك، الغزو الإسرائيلي المفترض لأريحا (Kenyon, 1957, p. 258). عادت كنيون للتأكيد على نتائج حفرياتها في أريحا في كتابها اللاحق «الكتاب المقدس والحفريات الحديثة» (The Bible and recent archaeology) والصادر عام ١٩٧٨م. أما فيما يتعلق بالقدس فتوضح كنيون أنه كما هو الحال في أريحا، فإن المواقع الأثرية لا توفر مصادر قوية أو قاطعة لما تطرحه الرواية التوراتية حول أورشليم السليمانية، وأكدت أنه لم يتم العثور على أية مخلفات أثرية إسرائيلية داخل السور القديم، وأن تلك المنطقة المحددة قد تعرضت لدمار وانهيارات كبيرة على مر العصور، ومن الاستحالة بمكان العثور على أية مخلفات تعود لأورشليم، وأن المخلفات الوحيدة المتوفرة تشير إلى تلك الأبنية والهياكل من فترة الملك هيرودوس الكبير (Kenyon, 1978, p.43, p.50, p.52). لقد كان المنهج الذي اتبعته كنيون في حفرياتها ثورياً في فترة مبكرة، لكن ذلك المنهج تم البناء عليه لأكثر من عشرين عاماً لتخرج مدارس فكرية مجددة تنقض تماماً جميع ما طرحه علم الآثار التوراتي.

رابعاً: التنقيبات الأثرية بعد الاحتلال الإسرائيلي ١٩٦٧م.

احتلت إسرائيل عام ١٩٦٧ باقي أجزاء فلسطين الانتدابية والمتمثلة بالضفة الغربية وقطاع غزة. شرع الاحتلال الإسرائيلي مباشرة بعد الاحتلال بالقيام بسلسلة واسعة من المسوحات للمواقع الأثرية الفلسطينية في كل من الضفة الغربية، بما فيها القدس، وقطاع غزة، وسعى من خلال تلك المسوحات إلى تحديث قاعدة البيانات الخاصّة به حول المواقع والمعالم الأثرية في الأراضي المحتلة الجديدة، والتي أعدها سابقاً الانتداب البريطاني، وإعادة صياغة ومواءمة نتائج المسوحات الأثرية السابقة، وشملت تلك المواءمة القيام بأكبر عملية عبرنة لأسماء المواقع والمعالم الأثرية الفلسطينية وتهويدها، خاصة في الضفة الغربية، و كما اصطلح على تسميتها (يهودا والسامرة)، طبقاً للتاريخ والجغرافيا التوراتية. وعلى إثر حملة المسوحات الأثرية تلك، شرع الاحتلال الإسرائيلي بأكبر حملة تنقيب أثري في الأراضي الفلسطينية المحتلة، حيث قدرت، حسب الإحصائيات الأخيرة، بما يزيد عن ٩٠٠ عملية تنقيب حتى ٢٠١٨م، واحتلت القدس النسبة الأكبر من تلك التنقيبات والتي قدرت بحوالي ١٧٠ حملة تنقيب. ومن الجدير بالذكر قيام سلطات الاحتلال بإصدار أكثر من ١٥٠٠ رخصة تنقيب في تلك الفترة، مع التأكيد على أنّ هذه المعطيات تقديرية بسبب الغموض والسريّة التي اعتمدتها سلطات الاحتلال ضمن نشاطها الأثري في الأراضي المحتلة (طه، ٢٠٠٩، ص ص. ٢١-٢٣). بعد قيام إسرائيل باحتلال باقي أجزاء فلسطين التاريخية في عام ١٩٦٧م، فإن سلطات الاحتلال أصبحت تسيطر على ما مجموعه ٣٥,٠٠٠ موقع أثري كبير وصغير، تتوزع ما بين مدن وقرى وتلال وكهوف ومقالع حجارة وأبراج وغيرها، تعود لمختلف الحقب التاريخية، وتلك الإحصائية استندت إلى المسوحات البريطانية في الثلاثينيات. وتضمّ الضفة الغربية ما يقارب ثلث هذه المواقع، والبالغة ١٢,٢١٦ موقعاً، وقد تم تدمير العديد من هذه المواقع الأثرية خاصة بعد احتلال عام ١٩٦٧م (يحيى، ٢٠٠٨، ص. ٢). بينت المسوحات الأثرية والتي أجراها الاحتلال الإسرائيلي بعد عام ١٩٦٧م وحتى عام ٢٠٠٠م، أن عدد المواقع التي تم مسحها والعمل فيها قد بلغ ٣,١٧٠ موقعا ومعلما أثريا، وهي تغطي الأجزاء الشمالية والوسطي وبعض أجزاء الجنوب من الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية (أبو الهيجاء، ٢٠٠٨، ص. ١٤).

لقد قاد العمل الأثري بعد احتلال عام ١٩٦٧م عدة مؤسسات رسمية وغير رسمية تتمثل بشكل أساسي في سلطة الآثار الإسرائيلية (دائرة الآثار الإسرائيلية سابقاً)، ودائرة الآثار التابعة للإدارة المدنية للأراضي المحتلة (ضابط الآثار سابقاً)، بالإضافة إلى الجامعات والمعاهد البحثية الإسرائيلية والأجنبية. ومن الضروري الإشارة إلى أن الكثير من تلك التنقيبات جرت بتمويل من وزارة الأديان الإسرائيلية، وجمعيات استيطانية مثل اليعاد وعطيرت كوهانيم. بالإضافة إلى تمويل إضافي لتلك التنقيبات من قبل العديد من المؤسسات اليهودية والصهيونية داخل إسرائيل وخارجها. ومن هنا، فإنّه من الواضح أنّ تلك التنقيبات الأثرية في الأراضي المحتلة لا تأتي على خلفية علمية بهدف التعرف على التاريخ الحضاري للأرض، وإنما تأتي في إطار خلفية عقائدية دينية وسياسية اتخذت شكلاً قومياً مقدساً تحت شعار البحث عن جذور التاريخ اليهودي في فلسطين (طه، ٢٠٠٩، ص ص. ٢٦-٢٧).

حسب الإحصائيات التقديرية السابقة لعمليات التنقيب الأثري للاحتلال الإسرائيلي بعد ١٩٦٧م، فإنّه لا يمكن إبراز أو توضيح عمل تلك البعثات ونتائجها بسبب ضخامة عددها، إلاّ أنّه يمكن الإشارة إلى بعض أهمّ عمليات التنقيب الأثري في القدس ونتائجها، وذلك من باب تقديم نموذج كمثال يوضح تلك العمليات، والتي تأتي كما في الجدول التالي (نجم، ٢٠٠٩، ص ص. ١١٢-١١٤، ص. ١٢٥، ص. ١٣٨؛ نجاجرة، ٢٠١٢، ص. ١٦٦):

الرقم	البعثة	التاريخ	النتائج
1	بعثة الجامعة العبرية وجمعية الاستكشاف الإسرائيلية بإشراف بنجامين مزار(Binjamin Mazar)	1968-1974م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية إسلامية أموية وغيرها، وذلك من خلال تعرية الجدران الحجرية الساندة للمسجد الأقصى، وكشف الساحات المجاورة وإظهار البقايا العمرانية الأثرية، حيث سعت البعثة للوصول إلى الطبقة الأثرية الإسرائيلية المزعومة، ولم تنجح في ذلك، فالمخلفات الأثرية المعمارية تعود للعصور الإسلامية
2	بعثة ناحمان آفيجاد (Nahman Avigad)	1969-1970م	أجريت الحفريات في حارة الشرف (حارة اليهود) في البلدة القديمة واكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية (بيوت سكن) من مختلف العصور ومنها ما يعود للقرن الثامن قبل الميلاد، العصر الهلنستي والهيرودي والبيزنطي والإسلامي
3	بعثة دائرة الآثار الإسرائيلية	1973-1974م	جرت الحفريات بشكل مكثف أسفل المسجد الأقصى تحت الحائط الجنوبي للمسجد، والعمل في الأروقة السفلية للمسجد في أربعة مواقع، أسفل المحراب وبطول 20 متراً إلى الداخل، وأسفل جامع عمر ، وأسفل الأبواب الثلاثة للمسجد، وأسفل الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد، وعلى أعماق وصلت إلى أكثر من 13 متراً، مما جعله عرضة للتصدع وخطر الانهيار
4	بعثة آفي عوفر (Avi Ofer)	1982-1987م	إجراء مسوحات أثرية مكثفة لمنطقة جنوب الضفة الغربية (يهودا)، خاصة في منطقة القدس وضواحيها، وتم العثور فيها على سبعة مواقع تؤرخ إلى العصر البرونزي المتأخر واكتشاف 18 موقعاً تعود إلى العصر الحديدي الأول، وأما في العصر الحديدي الثاني فقد تم تسجيل 66 موقعاً أثرياً

جدول ٤: نماذج من بعثات المسح والتنقيب في القدس بعد احتلال ١٩٦٧م

وبالإشارة إلى النشاط الأثري المفرط للاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فإنه من الجدير ذكره أن القانون الدولي الإنساني حرم تنفيذ أية تنقيبات أثرية في الأراضي المحتلة من قبل سلطة الاحتلال، وطالبها بحماية المواقع الأثرية والمحافظة عليها. كما أوجبت أحكام القانون الدولي الإنساني قيام الدولة المحتلة بالحفاظ على أية مكتشفات ولقى أثرية وتسليمها لسلطة الحكم الوطنية بعد إنهاء الاحتلال. تمثلت أحكام القانون الدولي الإنساني المشار إليها في الميثاق الأول لاتفاقية لاهاي لسنة ١٩٥٤م، وقد قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي بخرق كل تلك الأحكام وعدم مراعاتها كما تم التوضيح سابقاً (طه، ٢٠٠٩، ص ص. ٢٠-٢١). أمّا فيما يخص سرقة المخلفات اللقى الأثرية، فقد شهدت المتاحف والمواقع الأثرية الفلسطينية والتي كانت قائمة قبل احتلال عام ١٩٦٧م حركة سرقة ونهب واسعة لمختلف المواد الأثرية، فقد تم نقل أغلب تلك المواد إلى المتاحف الإسرائيلية برعاية حكومية، واحتوت تلك المواد الأثرية على أرضيات فسيفسائية، وتماثيل، وتوابيت، وأدوات وأواني، ومخطوطات وغيرها الكثير، وبالإضافة إلى ذلك، شهدت الأراضي الفلسطينية المحتلة نشاط سرقة غير منظم للعديد من المخلفات واللقى الأثرية قام به جنود وضباط الاحتلال الإسرائيلي، وخاصة مجموعة وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان، وبيعها لتجار الآثار الإسرائيليين والأجانب (طه، ٢٠٠٩، ص. ٤٠).

إن التوسع في التنقيبات الأثرية وكثافتها في الأراضي الفلسطينية المحتلة، خاصة في الضفة الغربية، حفّز الكثير من العلماء والباحثين لإجراء تقييم ومراجعات لنتائج التنقيبات السابقة للمواقع الأثرية الفلسطينية، وظهرت تلك المراجعات بشكل جليّ في أواسط السبعينيات، حيث بدأت تظهر في الأفق آراء تطالب باعتماد منهج علمي يعتمد على الأدلة ضمن المصادر التاريخية المتوفرة. إن ذلك التغيير قاد أولئك الباحثين إلى رفض التفسيرات التي تستند إلى الافتراضات التقليدية الأصولية، والتي جاءت في سياق توراتي غير علمي معتمدة على مناهج مدرسة علم الآثار التوراتي (تومبسون ويلم، ٢٠١٩، ص ص. ٣٥-٣٦).

إنّ استراتيجيات العمل والتّنقيب الأثري العلمي قد تطور بدرجة كبيرة، وخاصة في فترة الثمانينيات من القرن الماضي، وتمثل ذلك في الانتقال إلى استخدام أساليب وتقنيات المسح الشامل، بدلاً من الاعتماد على الكشف والتنقيب في مواقع فردية، وهو ما أدّى إلى تبنّي استراتيجيات جديدة، وذلك بالخروج من انحسار البحث والمسح والتنقيب في نطاق التلال الحضرية، وخاصة من خلال علم الآثار التوراتي، وإجراء البحث والمسح والتنقيب الأثري في المناطق الريفية أيضاً، وهذا الأمر أتاح للباحثين والمؤرخين إمكانية الوصول إلى بيانات ومعلومات أكثر دقة وموضوعية حول فترات الاستيطان المختلفة من التاريخ الفلسطيني. إنّ هذا التطور في التنقيب الأثري يتناقض مع ما ورد من مسلمات مفترضة أفرزها الخطاب التوراتي حول ادعاءات وجود إسرائيل القديمة، وذلك أنّ تلك المسلمات السياسية واللاهوتية أدّت إلى شيوع استراتيجيات تنقيب غير علمية، وعزّزت من توجهات الوصول إلى نتائج تدعم فرضية وجود إسرائيل، الأمر الذي أدّى إلى وضع نصوص مجتزأة وغير موضوعية لنتائج البحث والتنقيب أمام الباحثين، والتي لم يتمكنوا من خلالها من الاستدلال على أيّة حقائق علمية ثابتة (وايتلام، ١٩٩٩، ص ص. ٢٥٠-٢٥٥). إن ذلك التغيير في المناهج والاستراتيجيات والأساليب قاد في النهاية إلى نشوء حركة نقد واسعة لنتائج العمل الأثري في فلسطين، وتمثلت تلك الحركة في نشوء مدرسة الحد الأدنى (المقللين) وما تلاها من مدارس فكرية مجددة.

خامساً: العمل الأثري مع نشأة السلطة الفلسطينية ١٩٩٤م

أُنشأت السلطة الوطنية الفلسطينية على إثر توقيع اتفاق أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل عام ١٩٩٣م. وفي عام ١٩٩٤م تأسست دائرة الآثار الفلسطينية، والتي تغير اسمها إلى دائرة الآثار والتراث الثقافي في عام ٢٠٠٢م. عملت دائرة الآثار الفلسطينية بالقانون الأردني لسنة ١٩٦٦م حتى عام ٢٠١٨م، حيث تم إقرار القانون الفلسطيني للآثار والتراث المادي، وحل محل القانون الأردني. ووفقاً لاتفاق أوسلو، فقد تولت دائرة الآثار الفلسطينية الإشراف على إدارة المواقع والعمل الأثري في المناطق المصنفة (أ) و (ب)، أمّا مناطق (ج)، وهي تشكل أكثر من ٦٠٪ من الأراضي الفلسطينية المحتلة، والمتمثلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، استمرت الإدارة المدنية للاحتلال الإسرائيلي في إدارة المواقع الأثرية فيها، وعلى الرغم من أن اتفاق أوسلو نص على تسليم إدارة الآثار والإشراف عليها في مناطق (ج) بشكل تدريجي بالتوازي مع التقدم في ترتيبات الوضع النهائي لتلك المناطق للسلطة الفلسطينية، إلّا أنّ ذلك لم يحصل، وعلى العكس، فإنّ سلطات الاحتلال الإسرائيلي فتحت الباب على مصراعيه للمسح والتنقيب الأثري لدائرة الآثار الإسرائيلية وغيرها من المؤسسات ذات الصلة (عبد ربه، ٢٠٢٤، ص ص. ٣-٤).

تركز عمل دائرة الآثار الفلسطينية في مرحلتها التأسيسية منذ عام ١٩٩٤م وحتى عام ١٩٩٦م على أعمال الهيكلة والتنظيم الإداري الداخلي. وبعد عام ١٩٩٦م باشرت بأعمالها الميدانية الأثرية وتطوير البرنامج العلمي للبحث الأثري الفلسطيني، وشرعت في بناء شبكة علاقات إقليمية ودولية بهذا الخصوص (طه، ٢٠٠٠، ص. ١١٩).

لقد شابت عملية نقل الصلاحيات من سلطات الاحتلال الإسرائيلي إلى السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٥م العديد من الإشكاليات، خاصة فيما يتعلق بالآثار والمواقع الأثرية، والتي تمثلت في قيام سلطات الاحتلال الإسرائيلي بالاستيلاء على بعض المواد من المواقع الأثرية في المدن المزمع تسليمها، كما حصل في مدينة أريحا، ونقلها إلى إسرائيل، وشكلت تلك الإشكاليات هاجساً لدى المختصين والمسؤولين الفلسطينيين، خصوصاً وأن حجة الاحتلال الإسرائيلي هي أن الفلسطينيين غير مؤهلين لحماية تلك المواد والمواقع الأثرية (يحيى، ٢٠٠٨، ص. ١٤٣).

ابتداءً من عام ١٩٩٤م قامت عدة مؤسسات فلسطينية رسمية وأهلية بعمل مسوحات أثرية أولية لمختلف المواقع والمعالم الأثرية والتاريخية في المحافظات الفلسطينية، ويمكن تلخيص هذه المسوحات كما يلي (أبو الهيجا، ٢٠٠٨، ص ص. ١٤-١٥):

الرقم	المؤسسة	التاريخ	النتائج
1	مركز المعمار الشعبي الفلسطيني (رواق)	1994م – 2004م	القيام بمسح واسع تضمن تسجيل المباني التاريخية في فلسطين، حيث وفر هذا السجل معلومات معمارية موسوعية وصفية حول 50320 مبنى تاريخي وموقع أثري يعود تاريخها إلى ما قبل العام 1945م، وضم السجل 400 خريطة محوسبة بنظام (GIS)، ويتضمن كذلك أرشيفاً لأكثر من 45,000 صورة للمواقع والمباني التاريخية
2	دائرة الآثار الفلسطينية، ووزارة التخطيط والتعاون الدولي	1999م	مسح لبعض المواقع الأثرية المختارة في مشروع معالم التراث الثقافي والحضاري المهددة في محافظات الضفة الغربية المحتلة، شمل المسح العناصر المختلفة للمعالم المختارة من حيث البيئات الثقافية والحضارية المحيطة بها، وتقييم واقع تلك المعالم الأثرية وحالتها، وضم المسح 50 موقعاً تعود لمختلف العصور التاريخية، مع التركيز في اختيار تلك المواقع على إبراز المعالم الهامة والمهددة بالاندثار
3	المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والأعمار (بكدار)	2002م	عمل مسح للمواقع الأثرية والمباني التاريخية، ووضع قاعدة بيانات منظمة حول الممتلكات الثقافية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وشملت قاعدة بيانات معلومات عامة عن الموقع أو المبنى من حيث تسميته وملكيته وجغرافيته ووصف البيئة المحيطة به، واحتوت أيضا على بند لوصف حالة الموقع والوصف المعماري للمبنى من الخارج والداخل، وتم تسجيل كل بناء قد تم تشييده قبل عام 1950م مع التقاط صورة له. وقد شمل المسح تجمعات من المحافظات بلغ عددها 158 تجمعا في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ولم يشمل المسح مناطق (ج) وأنتج مشروع بكدار قاعدة بيانات تشمل المعلومات الأثرية حول 2742 موقعا أثرياً

جدول ٥: المسوحات الأثرية الأولية الفلسطينية بعد عام ١٩٩٤م

لقد نفذت دائرة الآثار الفلسطينية والعديد من المؤسسات والجامعات الفلسطينية والأجنبية عمليات تنقيب وتأهيل لمواقع أثرية مختارة خاصة في مناطق (أ) و (ب). ولإعطاء لمحة حول العمل الأثري في فلسطين بعد قيام السلطة الفلسطينية فإنّه يمكن تلخيص بعض نماذج أهم وأبرز بعثات العمل الأثري ونتائجها كما يلي (طه، ٢٠٠٠، ص ص. ١٢٠-١٢٢؛ Taha & Gort, 2007, p. 53-85؛ الأشهب، ٢٠٠٢، ص. ١٠٠، طه وكوي، ٢٠١٤، ص ص. ٩-١٤):

الرقم	المؤسسة	الموقع	التاريخ	النتائج
1	دائرة الآثار الفلسطينية، وجامعة سابينزا الايطالية – روما (Sapienza University)	أريحا (موقع تل السلطان الأثري – أريحا القديمة، شمال غرب مدينة أريحا الحالية)	1997 – 2002م	اكتشاف مبنى ضخم من الطوب اللبن وأواني فخارية وأثاث وممتلكات شخصية من مقابر تعود إلى العصر البرونزي الأوسط. وتضمن العمل تأهيل للموقع الأثري، وتطوير البنية التحتية الأساسية له
2	دائرة الآثار الفلسطينية	خربة حيان، قبر بيزنطي في بني نعيم، خربة محمد الخضر، ساحة المهد في بيت لحم، قبر بيزنطي في قرية رمون، قبر روماني بيزنطي في قرية عطارة، المقبرة الرومانية في خربة سلمية، كهف قباطية، قبور رومانية في سبسطية، كنيسة جباليا، مواقع أثرية في النصيرات	1998-1999م	أعمال تنقيب وتأهيل إنقاذية لبعض المرافق والمواقع الأثرية، والتي ظهرت أو تأثرت أثناء تنفيذ مشاريع التطوير في مشاريع بنية تحتية
3	دائرة الآثار الفلسطينية، وجامعة لايدن الهولندية (Leiden University)	خربة ونفق بلعمة (المدخل الجنوبي لمدينة جنين)	1998-2000م	كشفت التنقيبات الأثرية في النفق المائي وخربة بلعمة أن الجزء المكتشف من النفق يبلغ طوله 105 متراً يتكون من ثلاثة أجزاء، وهي الجزء المقبب، والجزء المدرج الصاعد، وممرّ ضيق مبني من الحجارة. واكتشاف خزان كبير وأحواض لتجميع المياه مقطوعة في الصخر تشكل نظاماً مائيا متكاملاً يعود للعصور البرونزية، وتم تطويره في العصور اللاحقة. والكشف عن العديد من المخلفات واللقى الأثرية تعود للفترات البرونزية والحديدية والفارسية والهلنستية والرومانية والبيزنطية والإسلامية والصليبية. والكشف عن كتابة فينيقية على كسرة فخارية من القرن السابع ق.م ونقش حجري لمحارب وفرس
4	دائرة الآثار والتراث الثقافي الفلسطينية (دائرة الآثار الفلسطينية سابقاً)، وجامعة لايدن الهولندية (Leiden University)	تل بلاطة (شرق مدينة نابلس)	2010- 2014م	تأهيل الموقع الأثري، وإنشاء حديقة أثرية نموذجية تضم عدة مرافق. واعتبر المشروع نموذجياً من حيث اعتماد مناهج حديثة لإدارة التراث الثقافي

جدول ٦: نماذج لبعثات التنقيب والتأهيل الأثري بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية

لم يقتصر العمل الأثري في فلسطين على المؤسسة الرسمية بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، حيث شارك في هذا الجهد، وحتى خلال الفترة التي سبقت قيام السلطة، العديد من المؤسسات الأهلية، والجامعات، والبلديات ومؤسسات ولجان خاصة. ولإعطاء لمحة حول أهم المشاريع والجهات التي عملت في هذا المجال، يمكن تلخيصها فيما يلي (قمحية، ٢٠٠٣، ص ص. ٣-٦؛ المصري، ٢٠١٠، ص ص. ٩٤-١٠٠):

الرقم	المشروع	الجهة	الوصف	الشركاء
1	تأهيل وترميم الممتلكات الإسلامية في البلدة القديمة بمدينة القدس	دائرة الأوقاف الإسلامية	صيانة وتأهيل العديد من الممتلكات والمرافق الإسلامية في البلدة القديمة كالمدارس والمقامات والمساجد وغيرها، وأبرز تلك الأنشطة ترميم قبة الصخرة المشرفة	لجنة إعمار المسجد الأقصى، مؤسسة التعاون الدولي
2	إعمار البلدة القديمة في مدينة الخليل	لجنة إعمار الخليل	تشكلت اللجنة في العام 1996م، وضمت أعضاء يمثلون القطاعات الرسمية والأهلية والوجهاء، وكانت مهمتها الأساسية إعادة إعمار وتأهيل مختلف ممتلكات ومرافق البلدة القديمة في المدينة، بما فيها البيوت ذات الملكية الخاصة وإحيائها من جديد، لحمايتها من اعتداءات المستوطنين. وما زالت اللجنة مستمرة في مهامها حتى الوقت الحاضر	
3	مشروع بيت لحم 2000	لجنة مكونة من بلدية بيت لحم، وزارة الثقافة، مؤسسة التعاون الدولي، مركز المعمار الشعبي (رواق)	تنفيذ عدة مشاريع بنية تحتية وسياحية وثقافية في البلدة القديمة لمدينة بيت لحم، وترميم العديد من الأبنية التاريخية والأزقة والحارات خاصة مرافق كنيسة وساحة المهد	
4	تأهيل وترميم أبنية ومرافق البلدة القديمة في مدينة نابلس	بلدية نابلس	بدأت إعمال الترميم منذ العام 1994م، شملت ترميم القناطر والأحواش والساحات في البلدة القديمة، وتبليط طرقاتها، وإصلاح المساكن القديمة فيها، وترميم المبنى التاريخي "خان الوكالة" الموجود بها	الإتحاد الأوروبي، ومنظمة اليونسكو

جدول ٧: نماذج من مشاريع العمل الأثري لبعض المؤسسات والهيئات غير الرسمية في فلسطين

تركزت بعض تلك المشاريع في مناطق (أ) و (ب) باستثناء مدينة القدس والتي جرت فيها أعمال التأهيل والترميم تحت رعاية المملكة الأردنية الهاشمية. إلا أن العمل الأثري الفلسطيني في مناطق الضفة الغربية ذات التصنيف (ج) كان أكثر صعوبة بسبب إجراءات الاحتلال الإسرائيلي، وقامت المجالس القروية ببعض الأدوار التكميلية في محاولة لرعاية وحماية المواقع الأثرية في قراها ومناطقها، وتلخصت أهم أعمالها في التعريف والترويج لتلك المواقع الأثرية على المستوى المحلي والاقليمي، والتحذير من التهديدات التي يشكلها الاحتلال الإسرائيلي على تلك المواقع، والقيام بأعمال الترميم الأولية لبعض الأماكن والمواقع الأثرية والتاريخية بالشراكة مع مؤسسات أخرى، ومن ضمنها البيوت والساحات القديمة، وصيانة الطرق المؤدية الى تلك الأماكن والمواقع لإحيائها من خلال إقامة الفعاليات والمهرجانات والاحتفالات فيها، وتنظيم جولات سياحية إليها. ويتسم العمل الأثري في تلك المناطق الريفية بالضعف بشكل عام، نظراً لضعف التمويل والتنسيق الخاص بعمل المجالس القروية، إضافة الى صعوبات ومعيقات الاحتلال الإسرائيلي في تلك المناطق (شكور، ٢٠٢٣، ص ص. ٥٤-٥٦).

استمر الاحتلال الإسرائيلي في تنفيذ إجراءاته التعسفية في الأراضي الفلسطينية المحتلة على الرغم من توقيع اتفاق أوسلو، إلا أن تلك الإجراءات أخذت منحى متطرفاً بعد اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م، حيث شهدت الأراضي الفلسطينية المحتلة تكثيفاً لحملات التهويد والاستيطان في مختلف المناطق الفلسطينية، وتعتبر إقامة الجدار العازل في الضفة الغربية المحتلة عام ٢٠٠٢م من أشد إجراءات الاحتلال تعسفاً وعنصرية، حيث وصفه الفلسطينيون بجدار الضم والتوسع، وشبهوه بجدار الابرتهايد في جنوب إفريقيا، وبجدار برلين في ألمانيا. سعى الاحتلال الإسرائيلي من خلال إقامة الجدار العازل إلى خلق واقع سياسي وجغرافي جديد في الضفة الغربية المحتلة، الأمر الذي انعكس سلباً وبشكل كبير على حياة الفلسطينيين في مختلف مجالات الحياة بما فيها الآثار وغيرها (أبو الهيجا، ٢٠٠٨، ص ص. ٧١-٧٣). لقد أثّر الجدار العازل بشكل مباشر على واقع المواقع الأثرية الفلسطينية والعمل الأثري برمته، حيث نتج عن إقامته فصل وعزل العديد من المواقع الأثرية عن بيئتها الحضارية الطبيعية، كما أنّ العديد من المواقع الأثرية قد جرى تدميرها بسبب أعمال البناء مما حال دون تسجيلها أو توثيقها أو التنقيب فيها، وهو ما أدى إلى تغييب مكانتها في التراث الحضاري الفلسطيني والإنساني (أبو الهيجا، ٢٠٠٨، ص. ١٤٠).

في العام ٢٠٠٥م، وعلى إثر قيام إسرائيل باتخاذ قرارها الأحادي بالانسحاب من قطاع غزة، بعد نهاية انتفاضة الأقصى، وتسليم كامل صلاحيات الحكم المدني للسلطة الفلسطينية، وكعادة الاحتلال، وكما حصل سابقاً، فقد رافقت عملية الانسحاب العديد من الإشكاليات تمثلت في تخطيط الاحتلال لنقل العديد من المواد الأثرية إلى إسرائيل، خاصة فسيفساء يوحنا المعمدان التي تعود إلى كنيسة بيزنطية من القرن السادس الميلادي. قاوم الفلسطينيون بشدة تلك الخطط، ولم يتم نقل اللوحة الفسيفسائية في النهاية. حاول الفلسطينيون مراراً وتكراراً على مختلف المستويات الرسمية وغير الرسمية، دون جدوى، العمل على استعادة المخلفات واللقى الأثرية الفلسطينية من المتاحف الإسرائيلية، خاصة متحف روكفلر في القدس، والذي كان يسمى زمن الانتداب البريطاني بالمتحف الفلسطيني. وأصبحت المهمة الأساسية في حماية والحفاظ على المواقع الأثرية الفلسطينية مهمة صعبة للفلسطينيين أمام استمرار إجراءات الاحتلال وعدوانه المستمر خاصة على قطاع غزة في السنوات الأخيرة (يحيى، ٢٠٠٨، ص ص. ١٤٤-١٤٥).

لقد عانت الأراضي الفلسطينية المحتلة، خاصة الضفة الغربية، جملة من إجراءات الاحتلال المتطرفة فيما يتعلق بالآثار ومواقع التراث الثقافي الفلسطيني، وهي تنتهك بها أبسط أحكام القانون الدولي فيما يتعلق بأية أراض محتلة وموروثها الثقافي. لقد اعتمد الاحتلال الإسرائيلي استراتيجيات وخططاً تهدف بشكل أساسي إلى الاستيلاء على أراضي الضفة الغربية بكل ما عليها، وبكل ما في باطنها، تمهيداً لضمها لدولة الاحتلال، ومن أهم تلك الاستراتيجيات التي تغطي إجراءات الاحتلال على الأرض الأوامر العسكرية المتكررة والتي تعتبر غطاء قانونياً لتلك الإجراءات، فهذه الأوامر العسكرية تصدر ضمن سياسة ممنهجة للاحتلال يقف خلفها مجتمع المستوطنين والمنظمات الاستيطانية الصهيونية المتطرفة، بحجة حماية الآثار اليهودية والتراث الثقافي اليهودي في يهودا والسامرة. وتغطي هذه الأوامر قانونياً سرقة الآثار الفلسطينية، وضم المواقع الأثرية وتدمير بعضها الآخر، وغيرها من الإجراءات. ومن ضمن هذه الاستراتيجيات تزوير وتحويل الآثار والتراث الثقافي الفلسطيني إلى آثار وتراث ثقافي يهودي، وذلك من خلال العبرنة والتهويد للأسماء والسرد التاريخي الوهمي، ومثال ذلك تحويل المقامات الإسلامية في الضفة الغربية إلى مقامات لشخصيات وأنبياء بني إسرائيل، وغيرها من الإجراءات (عبد ربه، ٢٠٢٤، ص ص. ٤-١١).

وفي أعقاب ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، شهد قطاع غزة المحتل أبشع عدوان من قبل الاحتلال الإسرائيلي والذي وصف من قبل المنظمات الدولية والإقليمية بأنه حرب إبادة جماعية يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي بحق فلسطين وشعبها في قطاع غزة. لم تقتصر هذه الإبادة على الإنسان الفلسطيني، بل امتدت لتشمل آثاره وتراثه الثقافي والحضاري. لقد اتبع الاحتلال الإسرائيلي سياسة ممنهجة في عدوانه الأخير على قطاع غزة، حيث اعتمدت على الاستهداف المباشر بالقصف بهدف التدمير للعديد من مواقع التراث الثقافي الفلسطيني، والتي شملت المواقع الأثرية، والمراكز والأماكن التاريخية، والمساجد والكنائس والمقامات الدينية، والمتاحف والمكتبات، ومراكز المخطوطات وغيرها. إن ذلك التدمير الممنهج استهدف أكثر من خمسة آلاف عام من التراث الحضاري الإنساني في غزة، وحوله إلى أطلال ودمار. وفي هذا السياق يمكن ذكر بعض المواقع والأماكن المهمة التي جرى تدميرها، كموقع تل السكن جنوبي مدينة غزة، والذي يعود إلى العصر البرونزي المبكر، وموقع تل العجول الذي يمثل تاريخ غزة في العصر البرونزي الوسيط والمتأخر، وموقع البلاخية (أنثيدون) والذي يعود إلى الفترتين اليونانية والرومانية، وموقع كنيسة جباليا البيزنطية بلوحاتها الفسيفسائية الجميلة وزخارفها، ومقبرة جباليا القديمة التي تعود إلى الفترة الرومانية والبيزنطية، والجامع العمري في حي الدرج، وهو أكبر مساجد غزة، ويعود للفترة الأيوبية، ومجموعة كبيرة من المقامات الدينية في تل المنطار والشيخ عجلين، ومقام الخضر في مدينة رفح، وقصر الباشا في حي الدرج بمدينة غزة، والذي يعود إلى الفترة المملوكية، والمدرسة الكاملية في حي الزيتون بمدينة غزة والتي تعود إلى الفترة الأيوبية، ودار الطرزي والتي تعود إلى الفترة العثمانية، وحمام السمرة وسبيل الرفاعية في مدينة غزة واللذين يعودان إلى الفترة العثمانية، ومتحف قصر الباشا والذي ضم آلاف القطع الأثرية التي دفنت تحت الأنقاض، ومتحف دير البلح. وجرى اقتحام مخازن الآثار التابعة لدائرة الآثار في غزة، وتضم عشرات آلاف القطع الأثرية من التماثيل والأواني الفخارية والزجاجية والمعدنية والعملات. إن ما ذكر سابقاً هو أمثلة لنتائج سياسة الاحتلال في تدمير التراث الحضاري في غزة، وحتى ساعة كتابة هذه المادة، وبعد مرور أكثر من عام على العدوان، فإنّه لا يمكن حصر أو تقييم آثار الدمار الواسع على مواقع ومراكز الآثار والتراث الفلسطيني، إلّا أنّ التقديرات الأوّلية تشير إلى التدمير الكلي أو الجزئي لأغلب تلك المواقع (طه، ٢٠٢٤، ص ص. ٥-٢٥).

أما في الضفة الغربية المحتلة، فبعد ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، اتسمت إجراءات الاحتلال، والمشار إليها سابقاً، بأنها أصبحت أكثر تغولاً وتطرفاً، ففضلاً عن العدوان المستمر من قبل جيش الاحتلال والمستوطنين، تمثلت أقسى تلك الإجراءات في تشريع قانون في يوليو-تموز ٢٠٢٤م بتوسيع صلاحيات سلطة الآثار الإسرائيلية، بحيث تشمل كافة أراضي الضفة الغربية المحتلة، وتهدف سلطات الاحتلال من خلال هذا القانون ضم مواقع الآثار والتراث الثقافي الفلسطيني في الضفة الغربية المحتلة (هيئة مقاومة الجدار والاستيطان، ٢٠٢٤، ص. ٢١).

وفي النهاية يمكن تقييم العمل الأثري في عهد السلطة الوطنية الفلسطينية من خلال الإضاءة على الكثير من الجوانب الإيجابية من إنجازات وتطورات في مجال العمل الأثري في فلسطين، إلا أن إجراءات الاحتلال الإسرائيلي كانت من أكبر المعيقات أمام ذلك العمل، فالسلطة الوطنية الفلسطينية لم تسيطر على الأرض وعلى المعابر الحدودية، كما أنها لا تملك الأجهزة التنفيذية التي تشرف على إنفاذ القانون وبرامج العمل الرسمية والأهلية فيما يخص العمل الأثري في فلسطين، بالإضافة إلى أن سقف صلاحياتها هو اتفاق أوسلو والذي لم يلتزم الاحتلال الإسرائيلي بالكثير من بنوده. ورغم إجراءات الاحتلال، فقد تمكنت السلطة الوطنية الفلسطينية من تحقيق بعض المكاسب على الساحة الدولية، وذلك بفضح إجراءات وانتهاكات الاحتلال الإسرائيلي بحق معالم التراث الثقافي الفلسطيني، ونجحت في بعض الأحيان في حماية تلك المعالم والمواقع من خلال تسجيل وتوثيق بعض منها في لائحة التراث العالمي لليونسكو، مثل إدراج قرية بتير الفلسطينية جنوب غرب مدينة بيت لحم في يونيو حزيران ٢٠١٤م في لائحة التراث العالمي المهدد، وإدراج موقع تل السلطان في أريحا القديمة في قائمة التراث العالمي لليونسكو في سبتمبر-أيلول ٢٠٢٣م، وإدراج بيت لحم وكنيسة المهد وإدراج الخليل القديمة وتقديم ملف قصر هشام، إلا أن تلك النجاحات لم تغير من الواقع الأليم الذي تعيشه الأراضي الفلسطينية المحتلة خاصة بعد عدوان الاحتلال في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، الذي تمت الإشارة إليه سابقاً.

الخاتمة

يمكن الاستنتاج وبكلّ وضوح بعد عرض ودراسة المعطيات السابقة، أن التنقيبات الأثرية الأجنبية في فلسطين منذ القرن التاسع عشر، والتي روجت الادعاءات الدينية لوجود تاريخ توراتي مزعوم في فلسطين، لم تستند في أساسها للمعايير العلمية، وبالتالي لم يتم إثبات تلك الادعاءات بشكل قاطع من خلال النتائج المستعرضة سابقاً. وفي المقابل، فإن نتائج العمل الأثري المعتمد على معايير علمية قد أكدت على بطلان تلك الادعاءات، ووثقت لتاريخ حضاري زاخر في فلسطين من خلال الطبقات والمخلفات واللقى الأثرية، والتي تغطي فترة طويلة من العصور الحجرية المختلفة وحتى العصور الإسلامية الحديثة.

إن اعتماد مناهج غير علمية في العمل الأثري أدى إلى توجيه نتائج تلك التنقيبات مسبقاً باتجاه أهداف دينية وسياسية، وظهر ذلك جلياً من بداية الانتداب البريطاني وحتى ثمانينيات القرن الماضي، حيث حدث التغيير الجذري في مناهج واستراتيجيات العمل الأثري، والتي أدت إلى نسف النتائج السابقة التي عمل الباحثون التوراتيون على تثبيتها وترويجها سابقاً.

إن النتائج الموضوعية الحديثة للعمل الأثري في فلسطين يتوجب تعزيزها واستثمارها في إطار علمي أكثر شمولية باتجاه خلق جهد وطني منظم لكتابة تاريخ فلسطين القديم. إن هذا العمل يتطلب من الجهات الفلسطينية ذات العلاقة القيام بسلسلة من الإجراءات التنفيذية المحددة مدعومة بتشريعات وقوانين مناسبة لتثبيت مخرجات ذلك المشروع الوطني، والتأكيد على أهمية إشراك كافة فئات وقطاعات المجتمع الفلسطيني في ذلك المشروع، وبالأخص الباحثين الفلسطينيين الشباب وطلبة التاريخ والآثار في الجامعات الفلسطينية، وذلك من أجل خلق جيل جديد من المؤرخين وعلماء الآثار الفلسطينيين المهيأين والمؤهلين ليكونوا نواة مدرسة علم الآثار الفلسطينية. وفي نفس السياق، فإن تلك الجهات الفلسطينية مطالبة بتقييم ومراجعة كل الأدبيات والمراجع المتعلقة بتاريخ فلسطين القديم، خاصة الفلسطينية منها، والتي لا تستند إلى معايير علمية واضحة، ووضع خطة محددة للتعامل معها.

إن تعثر التسوية السياسية للقضية الفلسطينية في الوقت الراهن تلزم السلطة الفلسطينية والدوائر ذات الصلة بتصميم برامج عمل أثري بنمط جديد يتماشى مع واقع وجود الاحتلال الإسرائيلي، وأهمية إشراك كافة فئات وقطاعات المجتمع الفلسطيني في تلك البرامج، مع تجنيد الدعم الدولي لتوفير شبكة حماية وأمان لذلك العمل، ولمواقع التراث الثقافي في فلسطين.

الهوامش

ملاحظة منهجية: المقصود بالترتيب الكرونولوجي في الجداول هو ترتيب بعثات التنقيب وفق تاريخ تنفيذ كل بعثة (Chronology of Excavations)، وليس الترتيب الزمني للمكتشفات الأثرية أو العصور التاريخية التي تعود إليها (Cultural or Period Chronology)، ويأتي هذا الترتيب بهدف إبراز تطور الاهتمام الأثري بفلسطين وتدرجه تاريخيًا منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف الالفية الثانية.

المراجع

المراجع العربية

- إبراهيم، معاوية. (٢٠١٠). *دراسات في آثار فلسطين*. عمان: دار البركة للنشر والتوزيع.
- إبراهيم، معاوية. (د. ت). *فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد*. (د. ط). المجلد الرابع، الموسوعة الفلسطينية.
- أبو الهيجا، إكرام. (٢٠٠٨). *عوامل تهديد المواقع الأثرية في الضفة الغربية، الجدار العازل دراسة تحليلية*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين.
- الأشهب، رشدي. (٢٠٠٢). *المعالم الأثرية في فلسطين*. القدس: بكدار.
- تومبسون، توماس، ويلم، انغريد. (٢٠١٩). *الماضي العصي: دراسات في تاريخ فلسطين، محاضرات البيت الدنماركي في فلسطين*. ترجمة رانية فلفل المبيض وجمانة كيالي عباس، (الطبعة الأولى). رام الله: البيت الدنماركي.
- الحاج بورشارد. (١٩٩٥). *وصف الأرض المقدّسة*. (الطبعة الأولى). عمان: دار الشّروق.
- ساند، شلومو. (٢٠١٣). *اختراع أرض إسرائيل*. ترجمة أنطوان شلحت وأسعد الزعبي. (الطبعة الأولى). رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.
- شقور، ساري. (٢٠٠٣). دور الهيئات المحلية في تنمية وحماية المواقع الأثرية (دراسة حالة: محافظة سلفيت)، *مجلة جامعة فلسطين التقنية للأبحاث*، ١١(٣)، ٤٧-٥٩.
- الشلبي، سهيلا، والعدوان، شادية. (٢٠١١). المسوحات والتنقيبات الأثرية في فلسطين والوعي لأبعادها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى، *المجلة الأردنية للتاريخ والآثار*، ٥(٤).
- شوفاني، الياس. (١٩٩٦). *الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩*. (الطبعة الأولى). بيروت: مؤسسة الدارسات الفلسطينية.
- طه، حمدان. (٢٠٠٠). *تقرير حول النشاط الأثري لدائرة الآثار الفلسطيني ١٩٩٨-١٩٩٩*. دمشق: المؤتمر الخامس عشر للآثار والتراث الحضاري في الوطن العربي.
- طه، حمدان. (٢٠٠٩). إدارة الآثار تحت الاحتلال في فلسطين، *مجلة تحولات مشرقية*، ع ٩.
- طه، حمدان. (٢٠٢٤). *تدمير التراث الثقافي في غزة*. ورقة سياسات. رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- طه، حمدان. (٢٠٢٥). الحفاظ على التراث الثقافي في سياق استعماري. *مجلة الدراسات الفلسطينية*، ١٤٢، ٦٣-٧٤، رام الله.
- طه، حمدان، وكوي، خيرت. (٢٠١٤). *حديقة تل بلاطة الأثرية*. رام الله: وزارة السياحة والآثار الفلسطينية.
- عبد ربه، عمر. (٢٠٢٤). *الآثار والتراث الثقافي والطبيعي أداة للاستحواذ والاستيطان وضم الأراضي في الضفة الغربية*. ورقة سياسات. رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- قمحية، خالد. (٢٠٠٣). *حماية التراث المعماري الفلسطيني في ظل الاحتلال الإسرائيلي*. غزة: المؤتمر الدولي للهندسة وتطوير المدن، ٢٢-٢٣ أيلول ٢٠٠٣.
- كفافي، زيدان (٢٠١٩). فلسطين خلال العصر الحديدي الأول (نحو ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م): دراسة مقارنة بين الروايات التوراتية والبيانات الأثري. *مجلة ادرماتو*، (٣٩)، ٧ – ٢٨، السعودية.
- المصري، مجد. (٢٠١٠). *تقييم اساليب وتقنيات الترميم في فلسطين نابلس حالة دراسية*. (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.
- نجاجرة، غسان. (٢٠١٢). *أنماط السكن في المرتفعات الجبلية الفلسطينية في العصر الحديدي الأول، ١٢٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م*. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد، الأردن.
- نجم، رائف يوسف. (٢٠٠٩). *الحفريات الأثرية في القدس*. (الطبعة الأولى) عمان: دار الفرقان.
- هيئة مقاومة الجدار والاستيطان. (٢٠٢٤). *أبرز اعتداءات جيش الاحتلال والمستعمرين في الأراضي الفلسطينية المحتلة خلال شهر تموز ٢٠٢٤*، التقرير الشهري، رام الله، فلسطين.
- وايتلام، كيث. (١٩٩٩). *اختلاق إسرائيل القديمة*. ترجمة: سحر الهنيدي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- يحيى، عادل. (٢٠٠٨). آثار فلسطين بين النهب والإنقاذ: كيف يستبيح جدار الفصل والتنقيب غير المشروع وتجارة الآثار التراث الفلسطيني. *مجلة الدراسات الفلسطينية*، ١٩(٧٦)، رام الله.

المراجع الإنجليزية

- Kenyon, K. (978). *The Bible and recent archaeology*. London: British Museum Publications Ltd.
- Kenyon, K. (1957). *Digging up Jericho*. Fredrick A. Praeger Inc.
- Taha, H., and Kooij, G. (2007). *The Water Tunnel System at Khirbet Bal'ama, Khirbet Bal'ama Archeological Project*. Report of the 1996-2000 Excavations and Surveys, Ramallah: Ministry of Tourism and Antiquities.